هنـــــد أبـــو الشعـــر والكتابة الإبداعية

د . زياد أبو لبن *

سيرة حافلة بالعطاء والإبداع، لا كلل ولا ملل يتشعلق جدرانها، ولا تنثني محطاتها على تعب أو توقف، فتندفع بكل قوتها نحو المزيد من الإنجاز والإبداع والعمل، وأي إنجاز أو إبداع أو عمل ذاك الذي يتخطى رقاب العمر في سنوات مفعمة بالحياة والأمل، ومشحونة بذرات تتناثر جنبات الحياة، لا تلوي على ماضٍ يفتّ من عزيمتها، ولا حاضر ينهض في غفلة من سنوات العمر، تمضي بها الحياة كساقية تملأ يباب الأرض لتحيا من جديد، بعد مواتٍ قد عصف في حدائق الروح، تخطّ كلماتها في حقول سنابلها التي أثقلها الحَبُّ، فتمايلت تغدو خماصًا وتروح بطانًا كنوارس البحر، وهي تعانق شمس الكتابة من جديد.

* قاص وناقد وشغلَ عددًا من المناصب الإدارية في وزارة الثقافة الأردنية.

كتبت فأينعت، ورسمت فأبدعت، قاصة وشاعرة وفنانة تشكيلية ومؤرخة، تنحت من الكلمات فتثري جماليات اللغة، كما تنحت من الألوان فيغيب قوس قزح خجلًا، وتسبر أغوار البحث، فتستنهض التاريخ من سباته، هذه هي هند أبو الشعر.

بدأت حياتها في كتابة القصة القصيرة، فجاءت «شقوق في كف خضرة» فاتحة الكتابة الإبداعية على مجموعات قصصية ست (شقوق في كف خضرة ١٩٨١، المجابهة ١٩٨٤، الحصان ١٩٩٠، عندما تصبح الذاكرة وطنًا ١٩٩٦، الوشم ٢٠٠٠، مارشات عسكرية ٢٠١٤). ومَن يتتبع قصصها يلحظ هذا الخط التصاعدي في امتلاك جماليات اللغة، وشاعرية السرد، والرمز الشفيف في دلالاته، والبعد الإنساني في خروجه من ضيق المكان الجغرافي، تتحرك قصصها في أمكنة متعددة، وأزمنة مختلفة، فتنطلق من الأنا إلى الآخر في مضامين تنهل من الحياة اليومية، ما يشكّل عالمًا مسكونًا بالحكايات، وتصبح آلام الناس وأوجاعهم هاجسًا يقبض على مفاصل السرد، ويتحول الإنسان في لحظة إلى التشييء، فتعيده إلى إنسانيته التي تصرخ في وجه العالم البشع المليء باختلالات العصر، وانهيار المنظومة الاجتماعية، واغترابه عن المكان الذي انبتّ عنه، لينازع وجوده في الكون، فرائحة الموت والدم والخوف والقهر تنطفئ في لحظات الأمل والخير والحرية، هكذا ينطوي السرد وما يتخلله من حوار ووصف في معظم قصصها، إن لم أقل جميعها.

تحمل قصص هند أبو الشعر رؤيا جديدة لواقع نسيجه البسطاء والمهمشون والمغلوب على أمرهم، وتتعدد أصوات الرواة والرموز في صراعها اليومي، ويعيش الإنسان في أزمة مع ذاته، وتتشظى الذوات في استعادة الماضي، لتنفتح من جديد على حاضر ومستقبل، في همّ جماعي يُعيد للإنسان إنسانيته التي افتقدها. هذه ليست قراءة نقدية لكل منجز هند أبو الشعر القصصي، إنما هي ملامح عامة أو مرايا متجاورة لتجربة إبداعية في قصصها القصيرة.

أقف على كلّ قصة حملت عنوان مجموعاتها، ولعلّ اختيار الكاتب أو الكاتبة عنوانًا لمجموعته، من بين قصص المجموعة، له دلالة أو مرتكز أقرب إليه من القصص الأخرى، مثلما يصطفي الأب أحد أبنائه ليكون سندًا له في الحياة، أو حبيبًا خالصًا تنطوي عليه النفس في كتمانها، ففي المجموعة الأولى «شقوق في كف خضرة» يبدأ الراوي الضمني في سرد الأحداث، فخضرة ابنة الأرض التي تعمل فيها مع أبيها الفقير، تلك الطفلة التي يتشقق كفّها، وهي تغادر البيت في الغور إلى عمان لتعمل خادمة في أحد البيوت، كي تعيل أسرتها، فتصحبها (صبحية) كي تستحمّ بالماء والصابون، فتذكّرت قناة الغور التي كانت تستحم بها وهي ترتدي الثياب، وسائق الشاحنة التي أقلّها وهو لا يخفي نظراته إليها، في ذكورية أفزعتها وملأت قلبها المرتجف بالخوف، وتستعيد خضرة من خلال المونولوج النساء البيضاوات بسياراتهن الكبيرة، وثيابهن الرائعة، كي «تبيعهن الخضار التي تقطفها عند الفجر والندى يغسلها»، على الرغم من أن الفكرة مطروقة في القصّ والرواية العربية، إلا أن الكاتبة قدمت نموذجًا إنسانيًّا يرتقي إلى مفهوم الدفاع عن المرأة في استلاب أنوثتها، والافتراس الذكوري في المجتمع، كما صورت طبقية المجتمع الريفي والمدني، بأسلوب قصصي رشيق، استخدمت فيه تقنيات السرد الحديثة، ويستعيد القارئ في ذهنيته رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي، وتمسّك الفلاح بأرضه، ومقاومة الإقطاع، كما يستعيد رواية «دعاء الكروان» لطه حسين، وعمل البنات في خدمة البيوت، وسقوط ذكورية الرجل الشرقي.

قد يكون عمل هند أبو الشعر معلمة في وزارة التربية والتعليم، قبل انتقالها للعمل الأكاديمي الجامعي، مبعثًا لكتابة قصة «المجابهة»، وهي عنوان مجموعتها القصصية الثانية، وتدور أحداثها حول الصراع الداخلي في المدرسة، بين معلمة تتمرد على بيروقراطية المديرة، التي تستفرد بالقرار، وسلطتها في الإدارة، فالكاتبة قدمت صورة حيّة عن الإدارة الفاشلة،

بأسلوب سردي مباشر، وهذا الأسلوب النمطي لا يقلل من أهمية القصة على مستوى المضمون.

وفي المجموعة الثالثة قصة «الحصان»، لما تحمله من رمز في انزياح دلالي يكشف عن الماضي العربي المسكون بالموت، والكل يحاول استنهاضه من جديد، لينطلق نحو أفق المستقبل، فالبكاء على الماضي لا ينفع، فعلى الجميع أن يحرك الساكن، ويبعث فيه الحياة.

يحمل عنوان القصة (الحصان) دلالة لا تخفى على قارئ التراث العربي، وترد في القصة إشارة إلى «غرناطة» بما تحمله أيضًا من دلالة على السقوط العربي في الأندلس، فالقصة بمكوناتها السردية قصة تتقدم على قصص مجموعتيها الأولى والثانية.

تبقى القدس ذاكرة تستوقد نارها على كل الاحتمالات، فالشخصية الرئيسة في قصة «عندما تصبح الذاكرة وطنًا»، في مجموعتها الخامسة، تتمسك بالمكان، وتحمل هويتها العربية في الدفاع عنها أمام الآخر الغربي، الذي يحاول أن يمحو من ذاكرتها كل تفاصيل الماضي، وتتحوّل إلى صورة أو رسمة باهتة من كل المعاني، ففي القصة صراع نفسي في تقبل الآخر وعدم تقبله، وفي نهاية الأمر تتخذ الشخصية قرار المواجهة في تثبيت الحقّ العربي في القدس، عندما يستفزها سؤاله (أنتِ من إسرائيل؟). تحمل القصة رموزًا متعددة، ويغلب الحوار على السرد، وتستخدم القاصة تقنية الاسترجاع والاستباق لتوازن بين السرد والحوار، ويتداخل المونولوج ليعمّق الإحساس بالفقد والحزن والضياع.

تبقى الذاكرة محطة للوقوف على الماضي في تجلياته، فتلك الجدة في قصة «الوشم»، في المجموعة الخامسة، هي الماضي الجميل الذي لم يبقَ منه إلا ذكريات تحاصر راوية القصة من بدايتها إلى نهايتها، وتحمل رموزًا تنفلت من المكان والزمان، لتستعيد طقوس الزيارة التي علقت بذاكرتها، وصورة الوشم الأخضر على يد الجدة بعروقها النافرة والجلد اليابس.

وفي قصة «مارشات عسكرية»، في مجموعتها السادسة، قصة تبعث في النفس ذكريات الماضي، ذاك الجد الذي يستمع للأخبار من راديو فيليبس، وما يمثله من رمز للماضي الذي لا يلتقي مع حاضر الأحفاد الذين تشغلهم التكنولوجيا الحديثة، فلم يعد للراديو مكان يتسع في زمن ليس هو بزمانه. تقوم القصة على عدد من الرموز، متمثلة بتغيّر الأجيال، وبتغير الخطاب السياسي لقادة الأمة، وبانهيار كل القيم والمثل الحاضرة في المجتمع. تُعد هذه المجموعة نقلة نوعية في كتابة القصة عند هند أبو الشعر، وإتقان لعبة القص الحديث بكل ما يحمله من تقنيات سردية.

إذا حَمَلنا الكلام على الإبداع في المنجز الأدبي، نجد هند أبو الشعر قد بدأت مسيرتها الأدبية شاعرة في نصوص نثرية أو ما يسمّى بـ«قصيدة النثر»، بدءًا من نصها «عندما تركض طيور النورس في دمي»، إلى نصها «كلمة أخيرة لرجل تموت حبيبته»، وأيضًا «قصائد مبكّرة»، حيث يغلب عليها الطابع الرومانسي الحالم، وهي أقرب للخاطرة من الشعر، أو أقرب لشعرنة السرد، والبعض أطلق عليه سردنة الذات، حيث يتقاطع السرد مع الشعر، فتعتمد الفكرة في بناء النص الشعري، في حين نجد أن «نصوص أخيرة» في أناشيدها الثلاثة أكثر انفتاحًا على الشعر، وخروجًا إلى حدّ كبير من شعرنة السرد إلى لغة القصيدة.

كتبت هند أبو الشعر ـ أيضًا ـ «مشاهد مسرحية»، وهي عبارة عن نصوص تمزج ما بين القصّ والشعر المنثور، تعالج قضايا إنسانية، أقرب ما تكون إلى الفلسفة الوجودية، بل أقرب ما تكون إلى فلسفة غابريل مارسيل، الكاتب المسرحي والناقد والفيلسوف الفرنسي، الذي قال: «الوجود يعني أكثر من مجرد الوجود، حيث قد يكون هناك شيء في وجود شيء آخر». وكانت الكاتبة أكثر عمقًا في التصور الوجودي في نص «مرثية إنسان طيب».

يبقى القول، إنّ المتتبع لتجربة هند أبو الشعر في الكتابة الإبداعية، من قصة وشعر ومسرحية

ومقالة ونصوص وغيرها، يجدها كاتبة مثقفة بامتياز، ومبدعة في مسار كتابتها الأدبية، كما أنها مبدعة في فنها التشكيلي، ولم تنشغل في بحوثها التاريخية، ونبشها في الوثائق القديمة، عن الكتابة الإبداعية، ولم يثنها عملها الأكاديمي ونشاطاتها المتفرعة في شؤون الثقافة واللجان وغيرها، فقد أخلصت للفن القصصي فأبدعت، وفي البحث العلمي فأجادت.